

النص الروائي الجزائري خلال العشرية السوداء Algerian fictional text in the black decade

زينب خوجة *

جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل

المخبر الدراسات الاجتماعية-اللغوية، الاجتماعية-التعليمية والاجتماعية الأدبية، جيجل

nouharitaj92@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/01/29	تاريخ التقييم: 2023/05/26	تاريخ القبول: 2023/06/23
---------------------------	---------------------------	--------------------------

الملخص

تأثرت الجزائر بتداعيات الأزمة الأمنية، مما انعكس على المسار الروائي فدفعها لتبني أشكالاً روائية جديدة، وذلك من خلال التحول الذي عرفته الجزائر أثناء تلك الحقبة. حيث تميز فيها النص الروائي برؤية سردية جديدة نشأت في كنف جيل يبحث عن ذاته السردية مع انفتاحه على ثقافة الآخر.

يندرج المقال ضمن الدراسات النقدية البنائية التي نبحت فيه على إجابة علمية لبعض الإشكاليات النقدية المطروحة في أدب الأزمة، وللإجابة عنها انتهجت المنهج التاريخي والبنوي حتى نؤرخ ونوصل لهذه الظاهرة الأدبية الواقعة في أدب الجزائري المكتوب خلال التسعينيات، فكانت لنا إشكالية محورية هامة نعالج فيها علاقة الأزمة الجزائرية بالرواية، وكيف أسهمت بكل تناقضاتها الثقافية والفكرية في ولادة فن روائي جديد؟ كلمات مفتاحية: الأزمة؛ الكتابة؛ النص؛ السرد؛ الرؤية.

Abstract:

Algeria was affected by the repercussions of the security crisis, which was reflected in the fictional path and prompted it to adopt new forms of fiction, through the transformation that Algeria experienced during that era. In it, the novelist text was distinguished by a new narrative vision that arose within the confines of a generation searching for its narrative self with its openness to the culture of the other.

The article falls within the inter-critical studies in which we are looking at a scientific answer to some of the critical problems posed in the literature of the

crisis. How did it contribute, with all its cultural and intellectual contradictions, to the birth of a new art of fiction?

Keywords: crisis , writing, narrative, text, discourse.

* المؤلف المراسل

1. مقدمة:

غدت الرواية الجزائرية مثل غيرها من الأجناس الأدبية، تخوض غمار التحولات والتجريب في بنائها وشكلها السردى، حيث جاءت لتبحث عن الذات الإنسانية التي تعيش في عالم مظلم، متفوق على ذاته الفوضوية، لأن الرواية غالبا ما تعالج تحولات الواقع المأساوي، والتي يعتبرها (جورج لوكاتش) على حد قوله: الرواية هي زمن الإثم الكامل، فهي تهتم بالتحولات العميقة التي يعيشها الفرد داخل المجتمع، وعلاقته بالآخر من خلال عملية التأثير والتأثير بين الثقافات المختلفة، ذلك أن لكل عمل أدبي عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وفكرية تساعد في تشكيله، وليس من السهل بما كان التخلص من هذه العوامل في البحث عن خصوصية الرواية الجزائرية في تسعينيات القرن الماضي.

فقد جاءت الرواية الجزائرية المعاصرة في شكل أدبي جديد، أفرزته الثقافة السائدة حيث لمسنا فيها أشكالاً لا متناهية من التقنيات، والفنيات التي ساعدت في بلورة شكل جديد وممارسة اللعبة الروائية قريبا من المتلقي، وذلك من خلال الانفتاح على فضاءات الحلم، المدهش، الساخر، العجيب، الحداثي، والتراثي.

2- الكتابة الجزائرية المعاصرة: الحضور والرؤيا النصية:

يعد النص الروائي الجزائري نصا ثقافيا، يحمل تحولات فنية، وتنوعات ثرية على مستوى التشكيل الفني، والموضوعاتي متجليا إلى جانب جمالياته، محيطه الثقافي وأطره الفكرية المؤسسة له، فأدخلت بذلك النصوص السردية إلى عوالم التجريب والبحث عن هوية للكتابة العربية بالبحث عن أشكال توائم أزمت الإنسان العربي المعاصر، وتكتب رؤاه وأفكاره وتطلعاته ورغبة من الروائي في التعبير المباشر عن أيديولوجيته تعبيرا غير مباشر ليخلق عالما روائيا يضح بالصراعات والآراء التي تقدم للقارئ «فالتجريب المستمر هو ما يهب الكتابة شرعيتها وتبريرها»¹. بما يمنحه من آفاق تستمد مشروعيتها من طبيعة الكاتب الذي

يسعى لمساءلة الواقع وكشفه بما تتيحه له الرواية من إمكانات في أشكالها الجديدة وأدواتها المختلفة، فرواية التجريب» لا تخضع في بنيتها لنظام مسبق يحكمها، ولا إلى ذلك المنطق الخارجي الذي تحتكم إليه الأنماط التقليدية في الكتابة الروائية وإنما تستمد نظامها من داخلها، وكذلك منطقها الخاص من خلال تكسير الميثاق السردي المتداول، والتخلص من نمط بنيتها...»².

ولاشك في أن الساحة العربية قد شهدت زخما هائلا لمثل هذه الكتابات، مهما تعددت النهج، وتفرقت الطرق، وفي ظل ازدهار الدراسات النقدية لكل حيثيات النص السردي اتجه الحديث في البحث عن معنى النص اتجاهات لم تعد تتصل بمستوى البنية العميقة للنصوص الروائية فقط، بل عرف حفریات تتعلق بمحيط النص الروائي ما يعرف بالعتبات النصية، وما تحويه من مضمرات تضع القارئ دوما في حالة من البحث الدائم عن التميز والمراهنة.

وانطلاقا من هذه التحولات، مثلت الرواية العربية الجزائرية المعاصرة مرجعية معرفية بمختلف التحولات الاجتماعية، التي عرفتها الجزائر من خلال تناولها لمواضيع عديدة، فتطرق إلى مواضيع الثورة وما بعد الاستقلال لتظل بذلك في حراك مستمر مع عجلة الزمن متطرفة إلى ما يُستجد من المواضيع المرتبطة بالواقع، ما جعل الرواية الجزائرية عبر مختلف مساراتها، تنعتق ضمن إطار واقعي، على اعتبار أن مرجعياتها ومنطلقاتها تكون بدءا من الواقع النابع من التفاعل والتعايش، ويعتبر موضوع العشرية السوداء موضوعا استهوى الكثير من الأقلام الروائية التي كتبت عنه، بفعل معاشتها للواقع، وباعتبارها جزءا منه، وبذلك استطاعت الرواية الجزائرية أن تسهر على تسجيل وحفظ كل الأحداث عبر مختلف الأحقاب الزمنية. ففي هذه الفترة فترة السبعينيات ظهرت الرواية الجزائرية بصورتها الفنية المتكاملة، أين عرف الأدب الجزائري حينها حراكا إبداعيا متسارعا، ظهرت من خلاله أعمال روائية متنوعة، وجسدت في هذه العمال واقع الجزائر ومن أبرز روادها: (الطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة، مزراق بقطاش، محمد عبد العالي عرعار، عبد المالك مرتاض...)، لتأتي بعدها فترة الثمانينات التي أفرزت تجارب روائية

لأسماء جديدة مثل(واسيني الأعرج، رشيد بوجدر، أمين الزاوي، محمد مفلح، الحبيب السايح، جيلالي خلاص...) وتعتبر هذه الفترة امتداد للفترة السابقة لأنها كانت تحمل نفس التطلعات، والهواجس التي تحدثت عن الثورة والواقع، الخطاب الأيديولوجي، والسياسي...وربما السبب أن النقد يعتبرها نقطة فاصلة في تاريخ الفن الروائي الجزائري.

التجربة الإبداعية الجزائرية في العقود الأخيرة، عملت على احتضان مساحة خصبة في خارطة الثقافة العربية، وما الرواية الجزائرية المعاصرة إلا نموذج حق على هذه التجربة الواعية، إذ كشفت هذه التجربة عن وعي تاريخي وحدائي، يستجلي الحاضر من رحم الماضي وبذلك كان «العامل المنشط الذي دفع بالرواية الجزائرية إلى النضج الفني وأكسبها خصوصيتها، هو تلك التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذا الثقافية وقد كانت استجابة النص الروائي الجزائري على وجه الخصوص لتلك التحولات القاعدية مشروطة بالمشيراث الثوري والوطنية»³.

فشكلت بذلك الرواية المحلية في فترة التسعينيات وما بعدها منعطفا مهماً، يقوم بالدرجة الأولى على التجربة الذاتية الواعية، وقد طرح الناقد (مخلوف عامر)في كتابه(الرواية والتحولت في الجزائر)موضوع أثر الإرهاب في الكتابة الروائية حيث رأى «أن الإرهاب ليس حدثا بسيطا في حياة المجتمع، فهو لا يقاس بالمدة التي يستغرقها، ولا بعدد الجرائم التي يقترفها بل بفضاعتها ودرجة وحشيتها»⁴. وبالتالي فإن الرواية الجزائرية في فترة التسعينيات سعت إلى معالجة كل القضايا التي طرأت على البلاد، فهذه المرحلة تعتبر من المراحل التي شهدت فيها الجزائر أزمة سياسية وواقعا مأساويا مريرا، وقد كانت بحق هي النوع الوحيد الذي وعى، واستوعب بجدارة مثل هذه المضامين السوسيوثقافية، و تكفل على أكثر من صعيد بنقلها فوظيفة «الفن هي دائما أن يحرك الإنسان بكليته وأن يسمح لنا بالتماثل بحياة الآخرين وأن يملكها ممّا لم تكنه، و ماهي جديدة بأن تكونه...فالفن ضروري لكي يستطيع الإنسان أن يفهم العالم ويغيّره، ولكنه ضروري أيضاً بسبب السحر الذي يلازمه»⁵. ولهذا النوع من الفنون غايات أجّل وأسمى فهي لا تقتصر على «صياغة تركيبية أو تطبيقية لقواعد لغوية أدبية جاهزة، ليس القول الأدبي إنشاء يُحفظ أو يتوارث أو يُلقن شأن التلقين في تعليمنا المدرسي تحفيظ تراكيب، وصيغ جميلة تعادل الثقافة والقدرة على الكتابة، وليس القول الأدبي رصفا قواعديا للمفردات أو تواليا خطيا للألفاظ،

بل هو حجم وفضاء حجمه في الدلالات التي يُولدها انتظامه الدلالات تتولد في حركة الانتظام فتشكل بالعلاقات بينها، فضاء هذه الحركة»⁶.

أصبحت الكتابة في ذلك الظرف العصيب من التاريخ، على حدّ قول (فيصل دراج) «المجال الأمن الأكثر مواءمة للتعبير عن المعيش، تصرّح بما لا يقول به عالم السياسة، وتدّيع بما لم يقل به علم الاجتماع وتنشر ما يخفيه عالم الاقتصاد ويحجبه»⁷.

فالأدب أصبح يعيش راهنا تراجيديا، مخيفا، والإرهاب هو القضية المحورية في خضمّ الجدل الدائر حول ما يسمى بـ(الأدب الاستعجالي) لأنه يقع في قلب الانشغال الروائي، بأسئلة الواقع، والمتخيل متمخضة عنه أسئلة الهوية، والأيديولوجية، وأسئلة الوطن الجريح، في كل عمل روائي، نقرأ وراءه تشظي الذات الكاتبة، وعجزها عن تشخيص الهمجية التي فاقت واقعيتها أغرب ألوان الخيال.

قد قدر للروائيين الجزائريين الرغبة في تجاوز الراهن الحداثي، وفتح فضاء السرد على عوالم متاخمة للراهن، أثقل تأصيل النص بخطابات مكشوفة في مساءاتها المعلنة للتاريخ والثقافة والهوية والوعي، حيث تطالعنا كل هذه التسميات على وجه الخصوص في رواية "الشمعة والدهاليز" للطاهر وطار، و"ذاكرة الماء" لواسيني الأعرج، بحيث تحولت الكتابة الروائية للراهن الجزائري إلى كتابة لواقع الصراع بين سوداوية الواقع وهمجيته وبين الضمير الخلفي والإنساني.

3- الحالة السياسية والاجتماعية للجزائر في العشرية السوداء:

تعد الرواية الجزائرية المعاصرة، المرجع المؤرخ لكل الأحداث التي مرّ بها الوطن، إذ تعرضت لمختلف التحولات على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي والأمني، إذ يجب على «أي باحث يقوم بتحليل أعمال أدبية أياً كان جنسها، لا بد وأن يكون على دراية مسبقة بالمرحلة التاريخية التي نتج عنها العمل»⁸. إذ ورثت الجزائر بعد الاستقلال وضعاً اقتصادياً واجتماعياً كارثياً، كنتيجة منطقية للاستعمار وسنوات الحرب المدمرة، فقد أنتجت الحالة الاستعمارية الطويلة في الجزائر (132 سنة) مجتمعا جديدا، من «سماته الأساسية الفقر، والحرمان الاقتصادي، والثقافي للذات مسا أغلبية أعضائه... الحرمان الثقافي من منابع

العلم، والمعرفة كانت من السمات الأساسية الأقرب لهذا المجتمع الجزائري ، فساد الجهل كقاعدة عامة بين مختلف شرائحه الاجتماعية»⁹.

وكان هذا النظام الجزائري آنذاك أمام خيارين: «إما إتباع النهج الاشتراكي أو السير في ركب النظام الرأسمالي ولأن هذا الأخير ارتبط بالدول الاستعمارية ومنها فرنسا، كان الخيار الأول، حيث تبنت الدولة الجزائرية بعد الاستقلال النهج الاشتراكي، وهي ما عكسته كل موثائق الثورة الجزائرية، بدءاً من برنامج طرابلس إلى ميثاق (1986). وأكد ميثاق (1976) هذا التوجه، ولكن سرعان ما انحرفت الدولة عن هذا الخيار وانتهجت رأسمالية الدولة في عهد الرئيس (هوارى بومدين) وإن بقيت القيادة السياسية، تتبنى في خطابها الأيديولوجي والاشتراكي»¹⁰.

يتمظهر النص السردي الجزائري في سمات جمالية دالة، التي تشد إليها اهتمام النقاد والقراء على حد سواء، فتغريهم بمقاربتها ورصدها كموقع أدبي بدأ يأخذ أهميته في خريطة الإبداع الأدبي في الجزائر، فقد ظلت الرواية الجزائرية منذ نشأتها تسعى بإصرار لا يلين إلى اللحاق بركب الرواية العربية كتراكم روائي، وفن إبداعي له سماته وخصوصياته وجماليته، وهذا يعود بالأساس إلى قدرة الرواية على إغراء الكتاب لتجريب مسالكها، ولقدرتها على الاستيعاب والتعبير عن تشعبات وإشكاليات المرحلة التاريخية التي تمر بها الجزائر.

فالرواية في تأصيل نقدي للباحث (فيصل دراج): «تنتهي إلى زمن الحداثة الاجتماعية الذي يحدد القارئ، والكاتب علاقتين مجتمعتين، والذي يعين ذاته أيضاً كزمن تاريخي جديد، ينقل العلاقات الاجتماعية من الواحد إلى المتعدد، ومن المتجانس إلى المختلف، ومن الثابت المقدس إلى متحول لا قداسة فيه»¹¹.

وقد عرفت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية في السنوات الأخيرة، «تغيرات وتحولات كثيرة في الرؤية والخطاب، تبعاً للتحويلات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية التي عرفتها الجزائر منذ سنة (1988) ثم سنة (1992)، حيث دخلت الجزائر مرحلة حرب أهلية غير معلنة، مع سيطرة الجماعات الإسلامية المسلحة، وانزلاق الجزائر الفظيع إلى هاوية العنف والموت والتدمير الذاتي»¹².

لقد فاد النزوع في تقديم رؤيا معرفية خاصة بالهوية الجزائرية إلى توليد لغة جديدة قد نصلح عليها إلا بالمرجعية الذاتية (auto-reference) مختبر الكتابة الجديدة؛ بممارسات نصية، متعددة تعددت طرق البحث عن حادثة سردية مغايرة ومتميزة؛ لغة هذا النص تحولت إلى حقل التأمل بتصاعد الدوال، في بناء النص؛ إذ كلما اتسعت تجربة السارد المعاصر، أخذ الدال ينقش مجراه في بناء الرواية، وأعاد إلى الألفاظ الذي رثت -لكثرة ما تداولتها الألسن والأقلام- اعتبارها ونفخ فيها روح الشباب والانتماء والخصوصية، وقد أضحت اللغة اليومية، مادة جمالية؛ يصنع منها السارد المعاصر خطابه السردى، ويضيف تجربة من نوع آخر؛ فبدءا من الواقع، يفتح السرد، على الممكن واللاممكن.

ولم تكن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية بعيدة عن تيارات الأزمة، بل حاورت مظاهر الأزمة والمحنة بأساليب مختلفة، وتحول اهتمام جل الكتاب إلى التعبير عن الحالة الراهنة، والأزمة المستعصية والمتشعبة، وقد كان لتضخم مناخات الإرهاب واحتدام المأساة دور في ظهور شكل روائي جديد، أطلقت عليه تسمية رواية المحنة، يتخذ من الأزمة والمحنة الجزائرية سؤالاً مركزياً لمتنه الحكائي، تتوالد منه تيمات الموت والإرهاب، العنف، الرعب والمنفى. «وهي تيمات جديدة وسمت الرواية الجزائرية بمناخات المأساة، والفاجعة، والمحنة، ليبقى السؤال المركزي لأغلب النصوص الروائية التي ظهرت في هذه المرحلة، والذي تدور في فلكه كل الأسئلة، يتعلق بسؤال المحنة والأزمة»¹³.

وقد شهدت مرحلة التسعينات في الجزائر توليد رؤى كتابية سردية مثيرة، مثلته مجموعة نصوص روائية مكتوبة باللغتين العربية والفرنسية، والتي تصوّر المصائر الفردية والجماعية في ظل الأوضاع المفجعة التي تعيشها الجزائر منذ بداية التسعينات، بل قبل ذلك مع أحداث أكتوبر (1988)، مع ما يمكن تسميته بالعنف المطلبي الذي انتقل إلى عنف سياسي مع الأحداث السياسية التي عاشتها الجزائر مع الانتخابات المحلية والتشريعية سني (1990-1991)، وما صاحبه من أحداث وإضرابات واعتصامات هذا العنف الذي ما لبث أن تحول إلى عنف دموي، بداية من سنة (1992) مع الهجوم على مقر الأميرالية وأحداث القصبة في فيفري (1992) ثم اغتيال الرئيس "محمد بوضياف" في جوان (1992).

4- رواية الأزمة واختلاف التسميات

أُطلق على الرواية التي ظهرت في فترة التسعينيات مصطلح (رواية المحنة)، والتي «اتخذت من المأساة الجزائرية تيمة مهيمنة، ومن الأحداث والحرب الأهلية غير المعلنة بؤرة للسرد تتوالد منها أسئلة النص، وعلى ضوئها تتحدد علاقة الذات/ الآخر، الحياة/ الموت الذاكرة/ النسيان، الوطن/ المنفى، وغيرها من الثنائيات الضدية التي ارتكزت عليها هذه الرواية»¹⁴. هذا «وقد أُطلق على هذه الرواية عدّة تسميات منها: الرواية الاستعجالية، رواية الأزمة، رواية العشرية السوداء، رواية الشباب، رواية ثورة العنف محكيات الإرهاب، وغيرها من التسميات التي لم يستقر عليها النقاد بعد، وإن كنا نفضل استخدام مصطلح (رواية المحنة) نظراً للمحمول الدلالي لمصطلح المحنة، فالمحنة هي ظاهرة إنسانية لها مبررات حدوث وجو تطور، ونتائج تقود إلى حلقة جدلية جديدة ويمكن نقل هذه الكلمة (المحنة) إلى تعبير آخر هو (جو التحدي)، فالمحنة هي الممارسة العملية لصحة ارتباط الفكرة بصاحبها وإخلاصه لها»¹⁵. وسنعطي دلالة التسميات لكل اسم منها:

- الرواية الاستعجالية وهو المفهوم الذي رددته الأوساط الفرنكفوني/ *Littérature de l'urgence*) والحقيقة أن السبب وراء تسمية الرواية الاستعجالية هو أن هذه الرواية عبارة عن ردود استعجالية حيث سقط العديد من الروائيين في نوع من التسرع والتبسيط وانسلقوا وراء الأحداث المبهولة المتسارعة، فجاءت عذرة الأعمال أقرب إلى التصوير الفوتوغرافي، إن مصطلح الرواية الاستعجالية يحيل إلى "مسارعة الكتاب إلى التقاط صور الحرائق المشتعلة في البيت الجزائري بما يجعل كل ممارسة كتابية غير متجهة رأساً إلى التنديد بما يحصل بمجرد لعبة لفظية رخيصة لا تساوي قيمة حبرها"¹⁶، لأن الجرح العميق الذي أحدثته الأزمة في النفوس ومحاولة الروائيين لمساءلة الواقع والبحث عن الملابس التي جرت بالبلاد في غيبات الظلام والدماء "يجعل البحث عن المقومات الفنية سلوكاً ينم عن قلة الحياء إن صح القول"¹⁷، لأن ما حدث في زمن العشرية السوداء لم يكن ليغري الروائي بالكتابة لقدراً ما كان يجبره عليها حيث أصبحت الكتابة في ذلك الظرف العقيب من التاريخ "هي المجال الآمن الأكثر موائمة للتعبير عن المعيش تصرح بما لا يقوله عالم السياسة وتديع ما لم يقل به علم الاجتماع وتنشر ما يخفيه عالم الاقتصاد

ويحجبه"¹⁸، فويلات الارهاب و أثرها على الراهن الجزائري آنذاك تمثل خلفية معظم الأحداث الروائية التي استعملتها طازجة لتنسج بها عالما روائيا دون أن تبني معادلا تخييليا لها، لأن خاصية الواقع لم تعطي للروائي فرصة للتروى وهذا ما جعل الكثير من الروائيين يقعون في بحر التقريرية والتسجيل فنجد مثلا الروائي الطاهر وطار في روايته "الشمعة والدهاليز" يتقاطع مع الروائي واسيني الأعرج في روايته "سيدة المقام" من خلال كتاباتهما لواقع الصراع بين سوداوية الواقع وهمجيته وبين الضمير الخلقي والإنساني وعليه فإن الرواية الاستعجالية ولدت نتيجة" الظروف المفاجأة التي طبعت المجتمع الجزائري في فترة الارهاب حيث الأحداث متتابعة ومتتالية ومتسارعة ومفاجئة على نمطية لم يعدها المجتمع وبأحداث لم يخبرها مما يتطلب أدبا استعجاليا يعبر عنها ويؤرخ لها ويكشف أسبابها ونتائجها ويتخذ موقفا منها"¹⁹. فدلالة مفهوم الاستعجال تحيل إلى تلك النصوص التي جرفها سيل الخطاب الصحفي في بنيتها الاخبارية حيث اكتفت بتسجيل اليومي والواقعي والعياني، مهملة مايتطلبه الفن الروائي من توظيف للخيال وتقنيات السرد، وقد مثل هذا النوع من الكتابة أيضا أحلام مستغانمي في ثلاثيتها: ذاكرة الجسد(1993)، فوضى الحواس(1996)، عابر سرير(2003)، رشيد بوجدر في روايته فوضى الأشياء(1990) تيممون(1994)، الحبيب السائح في رواياته ذاك الحنين(1997)، تلك المحبة(2002)، تماسخت دم النسيان(2002)، وهناك الكثير منهم من كتب في هذا. أما تسمية أدب الأزمة أو أدب المحنة، رواية المأساة فهوكل إنتاج أدبي روائي استطاع أن يجسد كل تناقضات والايديولوجيات السائدة في فترة التسعينيات من القرن الماضي لأنه كما هو معلوم أن الأدب معادلا موضوعيا للواقع، وبخاصة أن هذه الرواية ارتبطت بالواقع الراهن لأن الأدب يمتد عبر التاريخ ليلتقط مادته مما هو راهن لينقل بكل علو وتسامي التجربة الواقعية إلى تجربة أدبية إبداعية يمتزج معها جانب أوفر من التخيل، وهذا ما جعل رواية الأزمة تتميز عن ماسبقها بتقديمها عالم يوحي بالتفكك وذبك عن طريق تقديمها للحقيقة في عنفها وتقديمها لشخصية تعاني التمزق والغربة، حيث عكست هذه الرواية هوية المجتمع الجزائري مسكونة بهواجس الموت والدمار" فتعاطت الرواية موضع العنف السياسي وأثره اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا...كما سعت إلى البحث عن جذور الأزمة وفضح الممارسات التي

تبعها"²⁰، وقد تجسدت هذه الأزمة في العديد من الروايات كرواية "فتاوى زمن الموت لإبراهيم سعدي، والورم لمحمد ساري، والمراسيم والجنائز لبشير مفتي. بالإضافة إلى تلك التسميات: أب المحنة، أدب الأزمة. الأدب الاستعجالي، هناك تسميات أخرى مثل العشرية السوداء إلا أن المدلول يبقى واحد؛ وهو الخطاب الروائي الذي تناول فترة العشرية السوداء بكل ما تحمله من صخب وعنف وبربرية وهذا ما جعل هذه الرواية تتميز عما سيقها من نتاجات روائية في فترة السبعينات والثمانينات.

5- مميزات أدب الأزمة

- ومن مميزات رواية المحنة الجزائرية، أنها تحمل في مضمونها إعادة نظر في العديد من القضايا الفكرية، والإيديولوجية التي سادت وتكرست في الساحة الثقافية، وحاولت الخروج من نفق تصوير المرحلة الاستعمارية وأشكال المقاومة، ومرحلة السبعينات بثوراتها المتعددة (الصناعية، الزراعية، الثقافية) كما صورتها روايات التأسيس والتأصيل، ليحاول روائي مرحلة التسعينات أن يقرأ الحاضر الجزائري روائياً وليكتبه بقلق الذات وقلق مجتمع الذات، ولقد تمثلت خصوصية هذه الرواية فيما يلي:

- تعدد صور الإرهاب والعنف، فمن العنف التقاليد إلى العنف المشهد والانفعالات، العنف النص، العنف التخيل، العنف اللغة، هذا التعدد الدال على تعالق هذه الرواية بالواقع الاجتماعي الذي أنتجها وكشف عن العنف الجماعات الإسلامية، والقمع العاري لسلطة عنفية، كما أن هذا التعدد يعبر عن تنويعات رمزية للمقاومة ومواجهة الإرهاب بالكتابة.

- قدمت رواية المحنة عالماً آيلاً للانهياب وواقعاً مأسوياً، ومستقبلاً ضبابياً من خلال انهزام قيم الخير وتراجع قيم التكافل الاجتماعي وتفكك أواصر الاطمئنان الاجتماعي وغلبة المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية، مما ولّد حالة من الاختلال بين الذات/ والواقع، مما عمّق شعور الفاعل السردى بالانهزامية وانهياب العالم من حوله والإحساس بتشظي الكينونة وتمزق الذات، واتساع الهوة بين وعيه الممكن والسائد من العلاقات، وشعوره بالغربة والاغتراب والتهيه والمنفى، وسقوطه في هوة الضياع، وهو المصير المأسوي لمختلف فواعل رواية المحنة، خاصة من خلال التصوير الفيزيولوجي الصادم لمشاهد العنف والاغتيال.

- تتضح الرؤية الفجائية لرواية المحنة من خلال نعي المدينة، وتقديمها في حالة تدهور وانكسار فظيع.

- ومن مميزات رواية المحنة كذلك ارتباطها بالذاكرة التي كانت تيمة رئيسية إلى جانب تيمة العنف فشعور الذات بالغرابة والفقدان يدفعها إلى اللجوء إلى الذاكرة من أجل التخلص من الواقع.

- ركزت رواية المحنة على شخصية المثقف، خاصة المثقف الحداثي الذي يحمل رأياً مغايراً، مشاكساً، والذي سينسحق تحت عجالات الآلة القمعية، فمهان ويُحَقَّر، ويُذَل، ويُقتل، فهو كبش الفداء والقربان المفضل عند الجماعات الإسلامية.

- ركزت رواية المحنة على فعل الكتابة كملاذ أخير للمثقف، يحمي فيه من عفونة الواقع وتردي مستويات الحياة، حيث تشعر الذات بالخطر والحصار، ومع ذلك تقاوم من خلال فعل الكتابة كإصرار على فعل الحياة، حيث يتحول الوجود المادي إلى وجود لغوي متخيل تهرب الذات آمالها، وذكرياتها إلى الكلمات أملاً في حياة جديدة، وهو ما عبّرت عنه أحلام مستغانمي في رواية (فوضى الحواس) «كنت أحاول أن أستعين على الخوف بالكتابة وغالباً بالحب»²¹.

- تذويت الكتابة في رواية المحنة، وتفريد السرد، Subjectivisation et Individualisation، فمن خلال فعل التذويت يقوم الروائي بتجسيد أزمة الكينونة المتطلعة إلى الانعتاق من واقع مأساوي يعكس تقاطع الوعي الأدبي الذاتي بالوعي الاجتماعي.

- اتخذت رواية المحنة التجريب سبيلاً للكتابة، فيما يمكن تسميته عنف النص، عن طريق تكسير خط السرد واستثمار التدفقات الشعرية بإيحاءات تأملية تصف عبثية الواقع المعيش والقمع الممارس من الجميع على الجميع، وتوظيف مختلف الأجناس الأدبية والخطابات غير الأدبية في رواية المحنة فنصوص رواية المحنة هي نصوص متشظية تشظي الذات والذاكرة.

- تميزت لغة رواية المحنة بأنها لغة حميمية شعرية، توحى بالفجيعة والألم والقلق والتوجع، فقد حاول الروائي خلق معادل شعوري عنفي، موازي للواقع العنفي، فكانت لغة متوترة، مكثفة بشحنات التعصب والمجازاة المفعمة رهاباً، والوقوفات التأملية الأشبه بصرخات

الاحتجاج، وفي ظل هذه الأجواء الخانقة والمرعبة تحولت الكتابة إلى نوع من الصراخ في فج عميق ضد الصمت القاتل، والتنديد بالجريمة ومقترفها إذ» ترمي الكتابة إلى تعرية المتسببين في ما يتعرض له أولئك الذين لا يملكون من سلاح سوى الكلمة، ومن خلال فعل الكتابة يمارس الروائي قتلاً رمزياً ضد أولئك الذين يمارسون العنف»²².

إن الأحداث التي مرت بها الجزائر لم تكن محصلة أزمة سياسية فحسب كما يرى (حسن بركة) حينما يقول» إن طبيعة الأزمة الجزائرية سياسية بحثة ناجمة عن إلغاء المسار الانتخابي في طوره الثاني، والناجمة عن انتخابات 26 سبتمبر(1991)»²³. وإنما كانت هذه الحادثة القطرة التي أفاضت الكأس، وبخاصة وأن الجزائر قد شهدت اضطرابات وصدمات مع السلطة سابقة تعود إلى بداية الثمانينات، وما حدث فيها من اضطرابات ومظاهرات ومشادات مع الإسلاميين ورجال الأمن، ثم تلتها أحداث أكتوبر التي قلبت الأوضاع رأساً على عقب وغيّرت موازين الحياة بخاصة السياسية منها ويرجع ذلك إلى تفاقم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، من تدهور أوضاع المعيشة وارتفاع أسعار المواد الأولية، ونقص السلع الأساسية وغلاء المعيشة، وانتشار البطالة، وانتشار أشكال الانحراف، إضافة إلى تراجع أسعار البترول وانخفاضها.

كل هذه الأوضاع والمظاهر والاضطرابات والمشاكل والتصدعات والصراعات مع السلطة وغيرها لم تغفل عنها الرواية الجزائرية التسعينية بل كانت موضوعاً دسماً اشتغل عليه الروائيون لينقلوا للقارئ كل ما هو حيني وظرفي ويحول التجربة الواقعية المرة إلى تجربة إبداعية فنية، فراحت الكتابة الروائية تواكب الأزمة وتتبع مسارها خطوة خطوة في مساءلة المحنة، والأطراف المتسببة في ذلك.

إذ واكبت الرواية الجزائرية الأزمة التسعينية على أصعدة مختلفة مما جعلها تؤرخ لسنوات العنف والمأساة الوطنية» التي فرضت تيمات كتابية وأساليب سردية وطرائق بنائية اشتركت كلها في التنديد بالواقع وإدانة الأعمال الدموية»²⁴.

وحاولت البحث عن أطراف الصراع وعن أسبابه ونتائجه مما أوقعها في فخ التسجيلية معتمدة على سرد الراوي أو الشخصيات الروائية، وفي الغالب يكون السارد العليم هو الذي يتكفل بمهمة السرد، حتى يجول في أعماق الشخصيات ويعبر عن مكبوتاتها ومشاغليها وأحزانها ويتركها تستفز القارئ ليتعرف على حقيقتها ومدى فاعليتها في النص.

إضافة إلى ذلك فقد بحثت الرواية عن جذور العنف والأزمة وفضحت السلطة والمعارضة والإيديولوجيات المتضاربة، التي تخفت وراء قناع خدمة المصالح العامة من أجل تحقيق أهداف سياسية خاصة، واستغلت على تعرية الواقع والكشف عن هذه الإيديولوجية وعن الحقائق المؤلمة، والإجابة عن أسئلة لطالما حيرت الكثيرين بالوقوف عند مرجعيات «وحيثيات هذه الأزمة والغوص في تفاصيل الواقع المأساوي في محاولة محاورته والوقوف على أسبابه بصورة تحليلية نقدية، مناشدة الأعمال الإجرامية التي تقودها الجماعات المسلحة، فكان الواقع ومجرياته هو الملهم الأساس للكتابة الروائية»²⁵.

إذ وجد الكتاب أنفسهم مرغمين على ذلك إن صح التعبير، فقد فرضت هذه المأساة والمحنة نفسها على الكتاب، بخاصة أن بعضهم لم يسبق لهم وأن خاضوا تجربة الكتابة الروائية، بل الواقع المرير هو الذي دفعهم إلى ذلك لبث أحزانهم وآلامهم وجروحهم وهمومهم ليعكسوا في الآن نفسه أحزان وآلام وجروح وهموم شعبيهم ويجسدوا «المأساة الوطنية بكل تناقضاتها ومفارقاتها في قالب روائي وفق آليات فنية»²⁶.

4- خاتمة:

يمكن القول أن الانزياح الذي حصل على مستوى البنية الاجتماعية انعكس عنه انزياح على بنية النص، فظهرت من خلاله تشكيلات جمالية تعيد نصوص السبعينات والثمانينات وفق رؤية جديدة تغير على إثرها شكل النص التسعيني الذي بدأ يستثمر إمكاناته الجمالية، وهو يطمح إلى التمكن من تحقيق بنية تستجيب لانتصارات الواقع الجديد، وتتناغم مع مشكلات الراهن وتتطلع إلى اكتساب خصوصية أكثروعيا بتحولات الذات والمجتمع. وبالتالي فالنص الروائي الجزائري استطاع الانفتاح قصد استيعاب مختلف القضايا الحديثة، فالروائي الجزائري اليوم بات روائيا مجددا، ورافضا للبقاء في قالب واحد، إنه يأبى الانعزال على ذاته، ويصر دوما على الانفتاح والتقاط تحولات الفعل الروائي، فهو يسعى دوما أن يضع لنفسه موقعا مميزا في مشهد الكتابة الروائية العربية، وفي الآن ذاته يسعى إلى أن يكسر حدود التوقع بجديده الذي يضيفه على نصوصه. كما نلاحظ أن العشرية السوداء التي مرت بها الجزائر خلال تسعينات القرن الماضي منحت الرواية الجزائرية تيمة بارزة فكان الإرهاب مادة خام لصناعة نصوص مختلفة عن سابقتها، يغمرها العنف كميزة

أساسية، تحمل بين طياتها نماذج قتل واغتصاب وتكشف وتفضح ماسكت عنه الخطاب السياسي.

كما نلاحظ من خلال توثيق واقع التسعينات أن بعض الكتاب أهملوا الجانب الفني للرواية واهتموا بالجانب الموضوعاتي، فتناولوا ظاهرة العنف بدقة كوضع مستجد لم يسبق للوطن أن مر بمثله، ليقعوا فالاستعجال والمباشرة في التعبير عن الواقع، فأخذت بعض الروايات طابع الوثيقة أو التقرير من خلال حمل الأحداث كما هي. فتعرض الجزائر لأزمة التسعينيات كان بسبب خلخلة الاقتصاد وانهيار أسعار البترول، بالإضافة إلى إلغاء نتائج الانتخابات التي نقلت المشهد السياسي الوطني من الأحادية إلى التعددية الحزبية، حيث كانت الأحزاب الإسلامية تحتل الصدارة فشكل الإلغاء بالنسبة لها إصرارا لإبراز صوتها ورأيها فاخترت القتل والتدمير كرد فعل على ذلك.

قائمة المراجع:

- ¹ أحمد المديني: الخطاب الروائي العربي، (الخطاب المستحيل)، مجلة الطريق، ع3، أوت، عدد خاص في الرواية العربية البناء الفني وحركة الواقع الاجتماعي، 1981، ص78.
- ² بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب، دار سحر، تونس، 1999، ص20.
- ³ حسان راشدي: ظاهرة الرواية الجديدة في الجزائر، مسאלات الواقع والكتابة، رواية فوضى الحواس، ع3، مجلة الآداب قسنطينة، 2003، ص234.
- ⁴ مخلوف عامر: الرواية والتحول في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص92.
- ⁵ فيرأرنست: ضرورة الفن، تر: ميشال سليمان، دار الحقيقة، بيروت، 1965، ص16.
- ⁶ أحمد الزغبي: في الإيقاع الروائي، نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية، دار الأمل، عمان، 1986، ص227.
- ⁷ فيصل دراج: نظرية الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999.
- ⁸ صالح سليمان عبد العظيم: سوسيولوجيا الرواية السياسية، «يوسف القعيد نموذجا»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص20.
- ⁹ ناصر جابي: الدولة والنخب، دراسات في النخب، الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، منشورات الشهاب، الجزائر، 2008، ص95.
- ¹⁰ عبد العالي دبله: الدولة الجزائرية الحديثة، الاقتصاد والمجتمع والسياسة، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004، ص158-159.
- ¹¹ فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، 1999، ص144.

- ¹² ميساء كيسة ملاح: ايدولوجية رواية المحنة الجزائرية بين 1992-2002، مجلة اللغة العربية وآدابها، ع4، خاص، جانفي 2014، كلية الآداب واللغات، جامعة البليدة2، ص1.
- ¹³ المرجع نفسه، ص1-2.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص2.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص2.
- ¹⁶ -عبدالله شطاح : مدارات الرعب وفضاء العنف في رواية العشرية السوداء، مطبعة ألفا، الجزائر، 2014، ص142.
- ¹⁷ -المرجع نفسه: ص142.
- ¹⁸ -المرجع نفسه : ص144.
- ¹⁹ -عبد اللطيف حتي: الرواية الجزائرية بين الأزمة وفاعلية الكتابة، الملتقى الوطني الثاني في الأدب الجزائري بين خطاب الأزمة ووعي الكتابة 18/17 مارس 2009، قسم اللغة العربية وآدابها، معهد الأدب واللغات المركز الجامعي بالوادي، ص269.
- ²⁰ -أمنة بلعلي: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع تيزي وزو، ص280.
- ²¹ أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت، ط1998، ص340.
- ²² ميساء كيسة ملاح: ايدولوجية رواية المحنة الجزائرية بين 1992-2002، ص2-3-4.
- ²³ حسن بركة: أبعاد الأزمة في الجزائرية المنطلقات، الانعكاسات، النتائج، شركة دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، ط1، 1995، ص95.
- ²⁴ عبد الله شطاح: قراءة في الرواية الجزائرية متن العشرية السوداء بين سطوة الواقع وهشاشة المتخيل، مؤسسة كنوز للنشر والتوزيع، مجلة الحكمة، العدد3، جويلية، 2010، ص151.
- ²⁵ سعد طويل: تجليات المأساة الوطنية في رواية الورم لمحمد ساري، أسئلة الحداثة في الرواية الجزائرية، ملتقى الرواية الرابع، رابطة أهل القلم، سطيف، 2008، ص176.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص177.

المصادر والمراجع:

المؤلفات

- أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت، ط5، 1998.
- أحمد الزغبي: في الإيقاع الروائي، نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية، دار الأمل، عمان، 1986.
- بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب، دار سحر، تونس، 1999.
- حسن بركة: أبعاد الأزمة في الجزائرية المنطلقات، الانعكاسات، النتائج، شركة دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، ط1995.

-
- صالح سليمان عبد العظيم: سوسيولوجيا الرواية السياسية، «يوسف القعيد نموذجاً»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
- عبد العالي دبله: الدولة الجزائرية الحديثة، الاقتصاد والمجتمع والسياسة، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004.
- فيرأرنست: ضرورة الفن، تر: ميشال سليمان، دار الحقيقة، بيروت، 1965.
- مخلوف عامر: الرواية والتحويلات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 2000.
- ناصر جابي: الدولة والنخب، دراسات في النخب، الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، منشورات الشهاب، الجزائر، 2008.

المقالات

- أحمد المديني: الخطاب الروائي العربي، (الخطاب المستحيل)، مجلة الطريق، ع3، أوت، عدد خاص في الرواية العربية البناء الفني وحركة الواقع الاجتماعي، 1981.
- حسان راشدي: ظاهرة الرواية الجديدة في الجزائر، مساءلات الواقع والكتابة، رواية فوضى الحواس، ع3، مجلة الآداب قسنطينة، 2003.
- سعاد طويل: تجليات المأساة الوطنية في رواية الورم لمحمد ساري، أسئلة الحداثة في الرواية الجزائرية، ملتقى الرواية الرابع، رابطة أهل القلم، سطيف، 2008.
- عبد الله شطاح: قراءة في الرواية الجزائرية متن العشرية السوداء بين سطوة الواقع وهشاشة المتخيل، مؤسسة كنوز للنشر والتوزيع، مجلة الحكمة، العدد3، جويلية، 2010.
- ميساء كيسة ملاح: ايديولوجية رواية المحنة الجزائرية بين 1992-2002، مجلة اللغة العربية وآدابها، ع4، خاص، جانفي 2014، كلية الآداب واللغات، جامعة البليدة2.